

نسب انكشرون الى غيبرم الثاني الرغبة الشديدة في التشبه بنابوليون اكبر فاتحة
وغاية دون الوصول الى مقامه فاخذت احدى الصحف المزلية هذه النكرة وصورت
امبراطور الالمان لابساً قبعة نابوليون المعروفة وقد نزلت الى تحت اذنيه وهو يقول لمتشاروم
الوالف بقره :

— « اظن ان هذه القبعة كبيرة على رأسي » والمتشار يجيب :

— « بل اظن ان رأس جلالتك صغير على هذه القبعة ١٠٠٠ »

والنكات من هذا القبيل كثيرة لا تحصى نكتني منها بما ذكرنا ونقتنى على صحفنا ومجلاتنا
الكبيرة ان تصح في صفحاتها مجالاً لهذا النوع من النقد فانه يتضمن الجدة في معرض المزول
وكثيراً ما يجمع العظة والعبرة الى الفكاهة والنكتة

انطون الجليل

القاهرة

مصر منذ تسعين سنة

(١٢)

حادثة غريبة

بقي الارمني فلانزماً الجارية زينب يروي لما التقصص والمحكايات وكان بين البحرية
بحري تزي من الاناضول يدعى « حاجي » بلعبة حمراء طويلة يجلس مع الارمني ويكلم
الجارية من حين لآخر فسألت هذا عن موضوع حديث التركي معها فقال انه يعلم فروض
الدين والصلاة وانه من المتدينين حج مراراً الى مكة . فم أرباًساً من ان تعلم فروض دينها
واخيراً سمعت هذا الحاج يكرز في حديثه كلني مسلم وانصراني فسألت الارمني عن ذلك
فأجاب : يقول لما انه لا يجوز ان يشتري رجل مسيحي امرأة مسلمة قلت ولكن ذلك جائز في
مصر وكل الافرنج واليهييين يقتنون العبيد والجواري . قال نعم يجوز لهم (حسب قولهم) ان
يشتروا الخشيات المسيحيات واليهييات الوثنيات لا المسلمات

فاستأت من ذلك وخشيت من نتيجة هذا الحديث فربى اقلق راحتي ومعيشتي مع جاريتي
فلا أشأ ان يعبث هذا التركي بسداجتها ويشير فيها تأثيره العناد والمصيان فذهبت الى القبطان
وشكوت اليه امري ورجوت ان يمنع هذا البحرى من الكلام مع الجارية فقال لي لا سبيل
الى منعه ولكن في وملك ان تمنع جاريتك عن الكلام معه فذهبت الى الجارية وانبتها

بواسطة الارمني اني امنها عن الاختلاط مع هذا العجري والكلام معه فاضهرت الصبوة والكدر ولم تنطق بيئت شقة

(ثم حدث خصام شديد على اثر ذلك بين دي زفال والحاج بسبب الجارية وتداخل بعض النوتية في الخصام وكاد يفضي الامر الى ما لا تحمد عقباه واخيراً اضطر دي زفال ان يظهر لم كتاب توصية من الصدارة العظمى في الاستانة بواسطة الكونت دي رانفيل سفير فرنسا الى محمد رشيد باشا والي ايلالة عكا . فدفعه الى الارمني ليقرأه على سمع منبر وتهددم بالتكوى عند وصوله الى عكا . فاعتزتهم الزعدة والخوف وحنوا رؤوسهم احتراماً عند قراءة كتاب التوصية وهو عندهم بمثابة فرمان وطلبوا منه الصغح فصغح عنهم وانتهت المشكلة بذلك)

وفي اليوم التالي رسا بنا المركب عند اسكلة عكا فظهرت لنا من ورائها جبال فلسطين التضرة الخضراء فمن شهور كثيرة لم نقع عيني الاعلى جبال مصر القاحلة الجرداء وكانت جبل انكرمل امامنا وعلى قمة الدبر المشهور بهذا الاسم تحيط به المراج الخصب والاشجار والمروج الخضراء . وعند سفح بلدة حيفا ويوتها مضدة بعضها فوق بعض كالامينياتر وهيت حينئذ الرياح الشمالية المنشة للابدان الملتفة لحرارة الشمس . وبين عكا وحيفا خليج كقرس او كنصف دائرة والمدينتان قائمتان عند طرفي القوس

فلما رسا بنا المركب اتى رجال الصحة وفحصوا اجوازهم واوراقهم (الباطنطا) فعملوا اننا اتينا من بلاد موبوءة بالطاعون فتمعوناً من الصعود الى البر والاختلاط باحد غير انهم اجزوا لنا ان نملا براميلنا من الماء ونشترى ما نحتاج اليه من المأكولات والفاكهة . فذنت منا بعض القوارب واشترينا من مجازتها الخبز والخبز والبطيخ والزمان وغيرها من الاثمار فكانوا يضعونها في سلال نديها اليهم ونضع الدراهم في اوعية ملآنة من الخل حتى تطهر من الوباء على زعمهم ثم يأخذونها . والنقود التي كانت معنا من مصر غزبات ذهب وغروش ودرات ومصريات (نحاسات) وكنت اود ان ادخل الى المدينة لاتيخرج عليها واقابل معادة محمد رشيد باشا واليها واعطيه كتاب التوصية الذي معي من احد رجال الصدارة في الاستانة واطلب منه كتب توصية الى حكام الاساكن السورية التي ساورها (كانت وقتئذ مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة لولاية عكا) اذ ان قوانين انكورتينا صارمة مشددة فاضطرت ان احفظ الكتاب معي حتى وصولي الى بيروت وعكا هي بتولومايس اليونانية ومقر حكم محمد باشا الجزار الشهير بمظالمه ومجازره

البشرية . والمعارك الدموية التي حدثت بين نابوليون بوناپرت عند حصارها غير بعيدة عن الازهان

وفي عصاري ذلك اليوم اقلع بنا المركب من خليج عكاة وكانت الرجح موافقة ونحن في فرح وجلد كأننا في يوم عيد لان الماء كثير عندنا والمأكولات والفاكهة جزيلة ووزع القبطان على رجاله الخمر لجمعوا يرقصون ويننون وتناول فيثارتة يعرف بها وضلامه يعني يا حبيبي يا عيني يا محبوبي يا سيدي . وكذلك الجارية اشتركت معنا في الفرح واما الارمني فعاد الى اغنيته التركية « بليز بليز استنبولون فرمان . محمود غازي جمبولنده علي عثمان » وكان البحر صافياً رائقاً والجو صحواً والمركب سائراً مقابل شواطئ سليسريا (اي سوريا المتوسطة بين عكاة وبيروت) انني تمتد جبالها الخضراء من الكرمل الى ان تنصل عند صيداء مجبل لبنان

وبعد مسيرت ساعات وصلنا الى مدينة صور عاصمة فينيقية القديمة التي خرجها الاسكندر بعد ان حاصرها حصاراً طويلاً ولم يتمكن من الاستيلاء عليها الا بعد ثلاث سنين وبعد ان وصل الجزيرة المنية عليها بالبر . ولم يبق الا ان من هذه المدينة العظيمة الى بيروت صغيرة لصيادي السمك

وبعد خمس ساعات وصلنا الى صيداء صيدون القديمة فظهرت لنا جبال لبنان الشاهقة بغاباتها الخضراء وقرها الكثير العامرة موطن الدروز . وصيداء قائمة عند رأس بارز لها حرفاً قديم من آثار الفينيقيين لم يزل بعض حجارته الفخمة المربعة باقية رغمًا عن تلاعب امواج البحر بها مدة الزحف من السنين . وهذه المدينة صغيرة الا ان ضواحيها زاوية زاهرة بالسائين والرياض المغروسة بالليمون والبرتقال والموز والمان . ولما كان لا يسمع لنا بالسجون اليها فن البعث اصاحه الوقت بالوقوف فيها . وكنت اود ان اتفرج على هذه المدينة الشهيرة منكم البحار قديماً وعاصمة حفارة الفينيقيين ومهد التجارة والصناعة . وكانت معالمها كثيرة مشهورة بسج الاقشة صنع الارجوان وعمل الزجاج وغير ذلك حتى ان هوميروس الشاعر اليوناني خصها بالذكر في قصيدته الايلاذة دون باقي المدن الفينيقية وقال ان مصوغات الترواديين من صنع الصيدينيين . ولقد صدقت كل انباء الترواة عنها بانها حتمهم خراباً وبيوتها منشراً لشباك الصيادين

وبعد ست ساعات اخرى وصلنا الى رأس بيروت . وهذه المدينة على شاطئ البحر عند جون صغير يحيطها من البر سور مخرب ولم يزل بعض جدرانها من الجهة الشرقية باقية

وبيوتها حقيرة وشوارعها ضيقة عدا سراي الحكومة التي هي جزء من قصر الامير نجر الدين المعني وبعض دور القناصل ورايات دولهم تفتح فوقها . ووراء السور المدينة الحديثة عند سفح جبل لبنان في منبسط منبس من الارض وبيوتها بيضاء مكدسة متفرقة بين اشجار البوت والتين كأنها مقاصف في وسط الحدائق . ومنظر بيروت من المرفأ من ابدع المناظر نطلها من دراهم تلال واكام خضراء زاهرة وشياض زاهية وقرى عامرة تمتد الى رأس البترون وفوقها جبل لبنان مجفوله الحصبة وارزق المشهور وقراءه وضياحه واديرته وكنائسه الكثرية متفرقة على جوانبه من اسفله الى اعلاه ووراءه تظهر قمة جبل صدين الشاخنة المكلفة بالثلوج وكل هذه المناظر تظهر للرأي من المرفأ . وبيروت بموقعها هذا بين البحر ولبنان وماظها البديعة كأنها مدينة من مدن سويسرا بين جبال الالب البيضاء وبحيرة جنيف العافية

وخارج سور المدينة ميدان واسع في وسطه برج عالٍ مربع الشكل من بناء الامير نجر الدين الشهير (هو برج انكشاف وقد هدم الآن واما الامير نجر الدين المعني فهو الذي استقل بحكم ولاية بيروت ولبنان)
ومن جهتها الجنوبية صحراء رملية كبيرة غرس فيها هذا الامير غابة كثيفة من شجر الصنوبر لتقي المدينة من تيار الرمال

رما بنا المركب عند الحجر الصحي . وهو بناء واسع قائم على منحدر او جزيرة صغيرة منفصلة عن البر يقال لها الكورنتينا وتفتح فوقها الزاوية الصفراء . فانتظرنا بضع ساعات الى ان حضر الناظر وهو رجل تركي وبعد ان فحص جواز مركبتنا ونوتيته وظهر لديه ان صحتنا جيدة آجاز لنا الصعود الى البر لتقيم مدة اربعين يوماً تحت الحجر الصحي . ثم وضعنا في القسم المخصص للاوربيين مع جاريتي والشاب الارمني واما القبطان وبجارتهم فأجيز لهم قضاء مدة الحجر في المركب تحت حراسة رجال الصحة . وكان الناظر رجلاً عاتلاً ادبياً كرم الخلق عاتلاً بالتواؤة واللفظ . فوجدنا في اسرنا هذا من وسائل الراحة ما جعلنا نسي مشقة السفر واجاز لنا التمشي في الميدان والنزهة عند شاطئ النهر والاستحمام فيه تحت مراقبة الحراس وسمح لنا بالنزهة في حديقة الكورنتينا . وكان الاكل يقدم لك من الحجر بشن يومي معلوم وهو مؤلف من قطعة من العسل وقليل من البيض والجبن لأنك كان يسمح لنا ان نشترى من فلاحي لبنان ما يأتوننا به من الحليب والفأكة والدجاج والخمر واثنائها زعيدة جداً فكنا نشترى اللييرة (الرطل) من الضأن بخمسة وعشرين سنتياً (نحو غرش صاغ) .

والزجاجة السميكة بنصف فرنك والمشر الياض بعشرين بارة واقة العنب او الثين بخمس وعشرين بارة (نحو نصف غرش مصري) . وزجاجة الخمر الفاخر الذهبي اللون المصنوع في اديرة جبل لبنان بعشرين بارة . وكان بعض الاروام بأثينا بالخمر القبرصي وبيعنا الزجاجة منه بنصف فرنك الا انا عدلنا عنه الى الخمر اللبناني ذي النكهة والعلم المشطاب ويشبه خمر المادير عندنا

بين بيروت ولبنان

ولما اقتضت مدة الحجر الصحي خرجنا من الكورثينا . وقد وفقت الى استبحار منزل خصومي على بعد نصف ساعة من المدينة عند اسرة مسيحية مارونية وكل المساكن في هذه الضواحي مبنية داخل ساتين الثوت والين . والبيت الذي استأجرته مؤلف من طبقتين فالعليا لي وطار يتي والسفل لكن اصحاب البيت . والبيت مطل على البحر من الجهة الشمالية والغربية على طول الخليج من ميناء البلد الى الحجر الصحي قائم بالقرب من مخزور لتلاطم عليها امواج البحر (يواخذ من هذا الوصف ان البيت كان في حي المدور ار في حي الجميزة الآن) وكنا نجتمع مساء مع اهل البيت حول مصطبة مكسوفة من جهاتها الثلاث على البحر وهي بمثابة شرفة كبيرة (فراندا) . والاسرة التي سكنت عندها مؤلفة من رجل جاوز الاربعين مهنته الخياطة وله دكان في سوق المدينة . ومن زوجة وشقيقة لها وبنتين وابن . وقد رأيت من حسن اخلاقهم ورقة جانبهم وآدابهم ما سرني ولو كانوا من طبقة متوسطة في المعيشة ومعظم سكان ضواحي بيروت من السهل الى النهر هم في الاصل من لبنان . واكثر نساءهم جميلات يخرجن بلا قناع سوى تبدل رقيق بضعته على رؤوسهن وشال من القطن الملون على اكتافهن على زي النساء القرويات في ايطاليا

وكنت اترصد مروهن وهن ذاهبات لاستقاء الماء من آبار الصهاريج وعلى رؤوسهن الجرار يخطنن في سيرهن دلالاً . واما نساء الاسر الوجيهة فيجمن شعورهن فوق رؤوسهن كساج ويضعن عليه طاسة من نحاس او فضة حسب مقدارتهن انالية فوقها غطاء من شاش رقيق . ونساء الاسراء في جبل لبنان يضعن على رؤوسهن اسطوانات طويلة من الفضة على شكل البوق يقال لها عندهن الطرطور ويضعن فوقها غطاء من قماش رقيق لتدلى اطرافه على اكتافهن وهذا الذي كان شائفاً عندنا منذ القرون المتوسطة ولم يبتل الا في اواسط القرن الماضي

وقد استأنست جاريتي باهل البيت فكانت في اثناء غيابي تغزل اليهم وتحدث معهم وكثيراً ما كانوا يجتهدونما وهي جالسة بجحلاء على العنفسة كأنها من «المرايم» وارق منهم طبقة . وكنت اتركها عندهم معظماً على راحتها واذهب الى المدينة او دار القنصل أسأل عن البريد وكنت منشطراً الرسائل والدرام من اهلي واصبحت في ضيق وحيرة لعدم وصولها وكنت قد طلبتها حينما كنت في مصر لاستمعين بها على اتمام سياحتي في جبل لبنان

وحدث لي اثناء اقامتي في بيروت حادث غريب مفحك لم اكن اتوقعه . وذلك اني صحت في صباح احد الايام متأخراً قرب الظهيرة فرأيت فوق رأسي شخصاً طويلاً شاب سوداء وفي يده كتاب فقال لي باللغة الفرنسية كيف حالك يا ولدي . فقلت له بخير والحمد لله ولكن الممذرة . . . اسمع لي ان انمض والبس ثيابي . فوضع يده على كتفي وقال لا لا ارجوك ان لا تحرك لا تزعم نفسك . لقد دنت الساعة الاخيرة . قلت له بدهشة - الساعة الاخيرة ؟ واي ساعة تعني ؟ فقال الساعة التي ستلاقي فيها ربك وتستغفره بالتوبة والندامة مما اسأت اليه في حياتك بارتكابك الاوزار والمعاصي . فحدثت فيه بدهشة واستغراب وظننت انه لا بد ان يكون معتوهاً فقلت له . لا افهم ما تقول وما تقصد من هذا الكلام . قال اريد ان اتقبل اعترافك واتهد على رصيتك الاخيرة . نصرخت انضبت فمن انت ايها الرجل فاجب انا الاب بلانثيت . قلت لقد زدني غمراً . قال من الرهبانية السوعية فقد حضر بعضهم الى الدير وقال لي ان سألنا اميركياً غنياً مقبلاً عند امرة مارونية في هذا الحيا . اشتد عليه المرض واشرف على الموت ويريد ان يتعرف ويقبل الامرار ويكتب وصيته الاخيرة . وربما خصص جزءاً من ثروته بديرنا هنا فان الكنيسة صغيرة والمدرسة حقيرة والدير يحتاج الى التوسيع والاصلاح ولما وصلت الى هنا قبل لي ان في هذا البيت سألني ارنجياً فادخوني عليك

فتمهت ضحكاً عند ما عرفت هذا الخطأ وقلت له اعز اولاً يا حضرة الاب اني لست اميركياً غنياً . ثانياً لست لي صلة او اختلاط باحد من جمعيتكم وتختلف عقائدي عن عقائدكم الدينية الخلاقاً عظيماً . ثالثاً اني صحيح الجسم فاست مرضاً ولا مشرفاً على الموت وان كنت غير مصدق فانظر

قلت هذا ونفرت بسرعة من السرير الى الارض فضحك الاب بلانثيت وخرج ودفع البحث عن هذه الحادثة وعلم ان في منزل قريب من منزلي سألني اميركياً مرافقاً

فرجع واعلمني بالحقيقة واعتذر عن خطابه . ولما رأيتُ على جانب من اللطف ولين
العريكة عرفته بنمسي وسألته ان يزورني كلما سمحت له الفرصة اذ ليس لي صديق في هذه
المدينة أستأنس به .

ولما زارني المرة الثانية رأى الجارية وسألني عنها فقصصت عليه قصتي وما جرى لي
بمصر وكيف اضطررت الى مشراها . فقال لي لقد أسأت كثيراً الى هذه المرأة لانك لا
تقدر ان تصحبها معك الى فرنسا كجارية مشتراة ولا اظن انك تحب الاقتران بها . فكان
يجب عليك ان تتركها في بلادها فربما وجدت هناك زوجاً يصلح لها او سيداً من جنسها
تخدمه في منزله ففي المالين تجد لها ماوى شريفاً تنضي فيه حياتها . اما اذا تركتها هنا او
في فرنسا حرة وهي غريبة وحيدة فكأنك تدفعها بيدك في بؤرة الشرور والفساد فانظر ما
انت فاعل يا سيو دي فقال

فلا رأيت ما قاله هذا الاب صواباً جليت انكر فيها اصنع وحوامل الحيرة لتجاذبي فقال لي
لا تزعم نفسك كثيراً ما جد حلاً لهذه المشكلة . ففي هذه المدينة سيدات صالحات يفرن
مدرسة البنات اليساى القميرات ففي وسمي ان اضنها عندهن باجرة زهيدة مقابل نفقاتها
وبذلك تجد ماوى شريفاً وبصان مستقبلها . فقلت له لا بأس وانما لا اريد ان تزعم على
انتقال الدين المسيحي وعدا ذلك فهي غيرة على دينها المشككة بعقائدها اشد اتمسك . فهز
رأسه وتبسم ثم التفت نحو الجارية وبدأ يكلمها بلغتها العربية

وبعد بضعة ايام ذهبت وزرت هذا اليسوعي في دير صند باب بيروت الشرقي قرب
برج نجر الدين . وهذا الدير صغير مبني في فناء واسع والكنيسة صغيرة ، ملاصقة للمدرسة
فوقها محشى لفرف الرهبان . فادخلني الى فرفته وطال بنا الحديث عن زار سوريا من
الفرنسيين واخصهم دي لامارتين وقال لي انه من اخص اصدقائه وغواة اشعاره
والمؤمنين بمخالفة كثير . ثم شكوا مضايقة الحكومة التركية له . ذلم تمنح له بتوسيع البناء
وتشيد غرف مدرسو نجد ان بنى جزءاً من الطيفه العليا ووضع درجات السلم الرخامي
منتهى الحكومة عن اتمام العمل لابل حظرت عليه ان يضع جرماً فوق اكنيسة فوضع
بدلاً منه حديقة معلقة بجبل يقرع عليها بالشاكوش

ثم دار الحديث على الجارية فالتذعني الصبح بان اضعبها عند راهبات الهبة حيث تعيش
براحة وحناء بعيدة عن الاخطار فاذعنت لشورتو وخصوصاً لكوفي عزمت على الجولان في
جبل لبنان ويصر علي ان اصحبها معي

وفي صباح اليوم التالي صحوت من النوم على صوت الجارية وهي واقفة عند النافذة المطلقة على الطريق تصرخ بل صرتها « بندقية بندقية درزي درزي » فنهضت ورأيت طابوراً من الجنود التركية مارة من هناك وهم مسلحون بالنادق . وفي اليوم نفسه ذهبت الى المدينة وعلمت الحقيقة وهي ان المروزي في جبل لبنان والعداء بينهم وبين المسيحيين قديم العهد حرقوا قرية مسيحية تدعى بيت مري وهي على بعد ساعتين من بيروت فارسلت الحكومة طابوراً من جنودها ليقسموا الفتنة بين الفريقين والحقيقة انها ارسلتهم لمساعدة الدرزي اذا نطلب المسيحيون عليهم

وبعد بضعة ايام بينما كنت في المدينة ورجعت قبل ان احد امراء لبنان حضر لقضاء اشغال له وزار الاسرة التي اسكن في منزلها ولاحظ ان سائقاً فرنسياً مقيم في المنزل انتظرني مؤملاً ان يراني ويتعرف بي . ولما تأخرت وضع السائق في البيت دلالة على الاستئمان وذهب . وفي صباح الغد استيقظت على صليل اسلحة فتمضت مذعوراً واذا بالامير مقبل مع ستة من الفرسان اتباعه وكلهم بالثياب الفاخرة ومثقلون بالنادق وفي اوساطهم الخناجر المنفضة المتقاض . وتم التعارف بيني وبين هذا الامير وهو من آل شهاب الاسرة الحاكمة في الجبل ودعاني ان ازوره في بلدته وهي على بعد اضع ساعات من المدينة

ولما رأيت ان لا رجيل الى ابقاء الجارية عندي بعد ان عرفت ان آسج في جبل لبنان اخذتها وروضتها عند سيده فرنسية تدعى مدام كارليس عرفني بها الاب بلاشيت وهي صاحبة مدرسة للبنات فرأيت في هذه السيدة كثيراً من اللطف والهدوء وسمو الاخلاق مما جعلني ارتاح الي وضع الجارية عندها ولم تطلب مني سوى ثلاثة غروش في اليوم مقابل قوتها ونفقاتها . وبعد يومين زودت زيب ورأيتها مسرورة في معيشتها فاخذت مدام كارليس ناحية واوصيتها ان لا تبحث معها في الدين وان لا تضطرها الى اعتناق المسيحية

الدرزي والمرارة

دخلت مرة الى المدينة وعند رجوعي كان وقت الظهيرة فررت في ظريبي بسراري الحكومة عند البوابة الشمالية فرأيت الناس كلهم ينام فاجتال وجهه واجتار وحمزه والجمال وحمله كلهم متمدون على الارض في القيلولة حتى صاحب الدكاك تراه قائماً في دكاكه وهذه القيلولة شائعة في مصر وسوريا وما وكل بلاد الشرق واما في ادربا فغير مستعملة الا من اهل ايطاليا حيث منح البلاد واشتداد الحر يقضي عليهم باستعمالها

واما سراي الحكومة فعي قسم من سراي نجر الدين القديمة وقد جعلت واجهاتها كشكات من زجاج كابنية الامانة واراض السراي وجرها كلها مرصوفة بالرخام المرمرى واركانها الشالية ملاصقة لبوابة المدينة وهناك نبع ماء نظله شجرة حمير كبيرة دخلت يوماً الى فندق باتستا وهو الفندق الاوربي الوحيد في بيروت بالقرب من الميناء تطل شرفاته على البحر وكنت الصده للضياء من حين لآخر لان نفسي طالت الماكولات الشرقية . وكان في هذا الفندق مرسل انكليزي مع زوجته وشقيقتها . وهؤلاء المرسلون لا يخطون خذرة من بلادهم الا مع عائلاتهم وحصل التعارف بيني وبينه بواسطة السيور باتستا . وبيننا كنا على المائدة تجاذب اطراف الحديث حدا بنا الكلام على احوال الجبل واهله وسياسة وعن فتنة بيت مري . وكان قد قضى في الجبل نحواً من ستة شهور وطاف في اكثر مقاطعات الشوف فتعلم والتشيعر كما قال لي . وكنت اعلم قبلاً ان الانكليز معرونون ييبلهم الى السرور وتعفيدهم وحميتهم كما ان الفرنسيين يمضدون الموارنة ويحمونهم ولذلك كانت الغلائل والفتن بين الشيعين مشعرة على الدوام . سألت عن حادثة بيت مري الاخيرة لا استطع رأيه فاجاب - انتهت هذه الحادثة بسلام او بالحري خمدت نارها تحت الرماد . وقد كنت في مقاطعة بكفيا في الاسبوع الماضي . سألت وماذا فعلت هناك

اجاب بشرت الاهالي بالصلح والسلام . وللانكليز في الجبل اصدقاء كثيرون . قلت ان اصدقاءكم على ما اظن هم الدرروز . فجز راسه وقال نعم نعم مساكين هؤلاء القوم فالموارنة اكثر منهم عدداً والسلطة المدنية والدينية في ايديهم فيمرنون قرام ويشغلونهم ويشغلون مزارعهم ويقطعون اشجارهم

قلت ولكن الشائع عندنا في فرنسا عكس ما تقول فالدرروز هم المعتدون والموارنة المظفون اجاب بتأوه وتهد

آه آه الدرروز هم المعتدون ٤٠٠٠٠ مساكين هؤلاء القوم كلهم سذج لا يعرفون الشر ورجبتكم يدمون الموارنة الى الاعداء على مواطنهم ولكن كن وانثقا ان انكثرا لا تفتل قط عن حماية هؤلاء المظفومين

سراي بيروت

رفي احمد الايام دخلت المدينة للفرج على سراي الحكومة فرأيت في سجنها الداخلي

جسماً من الناس وقوة وهم بشباب فاخرة عليهم ملاحج الوجاهة. لوددت لو اعرف احدًا اسأله عن هؤلاء القوم وغرضهم . واذا ذلك سمعت صوتاً يناديني باسمي « يا مسيو دي نرفال » فالتفت ورأيت من وراء الكشك الداخلى الشاب الارمنى الذى صحبني في المركب من دمياط . ثم اقبل بصاغفي بيودد وانعطاف فتفرمت فيه واذا هو بشكل نظيف وثياب فاخرة على زي موظفي الحكومة التركية وفي وسطه بدلاً من الدواة النحاسية دواة فضية بديسة الصنع ورأيت في يده اوراقاً وكتباً وكراريس . وقال انه توصل لخدمة الباشا حاكم بيروت بواسطة احد مراقبيه الارمن الموظف عنده بصفة كاتب سره فبنته الباشا ترجماناً بالقرابة من احوال الشرق كان هذا الشاب منذ بضعة اسابيع قديماً معلوماً مشرداً يثاب زرية لا يملك سوى دواته والآن اصبح ترجمان الباشا وله لقب « اندي » فحدثنا برهة وسأله عن اولئك القوم الغرباء الجالسين في قاعة السراي فقال هم امراء ومشايخ الجبل النصارى جاؤوا ويشكون الدروز ويطلبون من الحكومة ان تمنح تسليم عنهم . فلي زعمهم ان الدروز تعدوا على املاكهم وكما التقوا باحد منهم منفرداً فتكوا به . وفي النقد ربما يحضر مشايخ الدروز ايضاً ويشكون النصارى . فقلت وبماذا سيجيب الباشا قال سيرضيه ويعدم بالاقصاص من الدروز كما انه سيرضى الدروز غداً ويعدم بالانقصاص من المسيحيين . فقلت ان الحكومة اذا هي العاملة على التفريق بين الطائفتين . فبسم وقال نعم وربما كان لا اختلاف فرساع انكثرا يد في ذلك

ثم سأله عن الكتب والاوراق التي يبدو فتراني بعض تقارير بالفرنسوية احدها من فصل فرنسا بدشق عن بعض حوادث بين النصارى واليهود . وكتاب روح الشرائع لمونتسكيو ومجلة ثلية فرنسوية وقال لي ان الباشا امره بان يترجمها الى اللغة التركية . قلت وما غرضه من ترجمة كتاب روح الشرائع وهو كتاب فلسفي فقال ان الباشا مهم بتأليف فرقة « جاندرمة » او بوليس لحفظ الامن وخيل له ان كتاب روح الشرائع يحوي على القوانين المدنية والجنائية ونظام اليسر . فقهرت ضحكاً وقالت ايрид الباشا ان ان يستخرج قوانين البلاد واحكامها من هذا الكتاب

ثم ودعت الشاب ودعوته لان يزورني في منزلي وخرجت من هناك وجلت في اسواق المدينة وكلها ضيقة مسقوفة على مثال اسواق بلاد اشرق قد شرقتها اشعة الشمس فاشترت بعض ائشة حريرية من صنع دمشق وكوفية وعقالا على زي البدو ووقفت عند احد باعة المشروبات الخفيفة وهم يفتنون في صنعها رائحتها وياتون بالثلج من اعالي جبل صتين . ومررت

بجامع المدينة الكبير وكان قبل انفتح كنيسة يونانية ولما استولى الصليبيون على بيروت
عادوه كنيسة كما كان ودفنوا فيها امير مقاطعة بريثاني الفرنسية من امراء الصليبيين ولم
يزل قبره ظاهراً في صحن الجامع

ثم خرجت من السوق وذهبت الى المينا وهناك ذكاكين التجار الانرجم واكثرهم
ايطاليون ومرسيليون وبالقرب منها حارة الاروام وكاهم هناك بقالون وخمارون واصحاب
قهوات وخرجت من المينا واتبع شاطئ البحر الى ان وصلت الى رأس بيروت وكانت
الشمس قد ماتت الى المغرب واخشرت اشعتها الذهبية على مرآة البحر الصافية ودرأت هناك
جمعاً من الثلان والبنات الصغار يستحمون في برك بين الصخور وعلى ما ظهر لي أن تلك
البرك قديمة منحوتة في الصخر على اشكال مختلفة بين مرصعة ومستديرة وقمرها مبلط بالرخام
ثم خرجت من المدينة من احدى بوابات بيروت وهناك بعض اعمدة قديمة من الترانيت
الاحمر ملقاة على الارض وعلى ما يقال ان ميدان الالعب الذي انشاءه الملك هيودس
اغريباس كان هناك

اخلافة

(بعد ان زار الحاج الامير اللبناني في بلدته ومكث عنده يومين ورجع الى بيروت فوجد
رسائل من اهله وذويه تستدعيه الى بلادهم فترك الجارية في مدرسة مدام كارليس بعد
ان اوحاها بالعناية بها ودفن طامطاً من المال لثقتاتها . ثم ابحر راجعاً الى فرنسا وهناك
ابتداً ينشر رواياته واشعاره وسياحاته وكان يبحر في جريدة «لابريس» بالاشتراك مع
غوثيه انكاتب الشهير . ثم احذم الجدل في الجرائد بينه وبين بعض الكتاب والشعراء
وانتقدوا كتاباته واشعاره انتقاداً مرّاً وكان ذلك سبباً لاختلال قواه العقلية من تأثير النغم
والكدر . وفي تلك الاثناء ورد من بيروت نبأ موت الجارية زينب بجزع عليها جزعاً شديداً
واصابته السوداء . فارسل الى البهارستان وبعده بضعة اسابيع وجد مشنوقاً في غرفته يحمل
ودفن باحثي عظيم ثلثة من انكاتبه في عام الكتابة والادب . وله مؤلفات كثيرة بين
روايات شخصية وقصائد شعرية وسياحات وكلها طبعت بعد وفاته بزمن وجيز . انتهى)
ديمتري قولوا